البعـــــد البلاغـــــي في نقد النّـــص الشّـــــــعري

– قراءة في نماذج مختارة من النّقد العربي القديم –

The Rhetorical Dimension in the Criticism of Poetic Texts. A Reading of Selected Examples of Ancient Arabic Criticism

***عمّار منور**

جامعة عبد الحميد بن باديس، مستغانم،(الجزائر) ammarmenouer@hotmail.com

د. جلول بوطيبة

جامعة عبد الحميد بن باديس، مستغانم ،(الجزائر) boutaib_rida@yahoo.fr

تاريخ الاستلام: 2020/08/27 تاريخ القبول: 2020/12/05 تاريخ النشر:24 /2020/12

ملخص: إنّ البلاغة العربيّة في بدايتها كانت مرتبطة ارتباطا وثيقًا بالنّقد، ورغم انفصالهما إلّا أنّ حقل اشتغالهما واحد ألا وهو النّص الأدبي، وقد احتل الشّعر عند العرب الحيز الأكبر من الدّراسات البلاغية والنّقدية، وإن تميز هذا الأخير بالتّجربة الفردية لكنه لم يخل من الصّفات الجماليّة الّتي تعدّ اللّبنة الأساسيّة في أيّ نص شعري، فكان لزامًا على الباحثين تذوقها وفق تحليل بلاغي لسبر أغوار هذا الخطاب الشّعري، ومحاولة الولوج إلى أعماقه، وقد ارتأينا معالجة هذه القضيّة في موضوع وسمناه بـ" البعد البلاغي في نقد النّصوص الشّعرية –قراءة في نماذج مختارة من النّقد العربي القديم–"، وقد أشرنا إلى علاقة البلاغة بالنّقد مستفيدين من معرفة ماهيتهما، كما حاولنا أن نبيّن تعامل البلاغيين القدامى مع الموروث الشّعري، واستخدامهم للآليات البلاغيّة في نقد النّصوص الشّعريّة، وقد توصلنا إلى جملة من النّقاط تظهر التّكامل بين العلمين، والمتمثلة في استخدام النّقد للآليات البلاغيّة في نقد النّصوص الشّعريّة، إذ لا مناص من استفادة العلوم من بعضها بما في ذلك البلاغة والنّقد.

كلمات مفتاحية: البلاغة، النّقد، الخطاب، الشّعر، الحجاج

Abstract: Rhetoric at the beginning was linked to criticism, despite their separation, their field of work is one: literary text. Arabic poetry occupied the bulk of rhetorical and critical studies. Although poetry is characterized by individual experiences, it is not without the aesthetic qualities that are the basic building block in any poetic text. The researchers had to analyse base upon a rhetorical analysis to probe into this poetic discourse. We have referred to the relation of rhetoric to criticism which helped us understand this concept and we have tried to show how the ancient rhetorical theorists dealt with the poetic tradition and their use of mechanisms in criticizing poetic texts. We have reached a set of points that demonstrates the complementarity between the two sciences, represented by the use of criticism of rhetorical mechanisms in the criticism of poetic texts, It is imperative that science benefits from some of it, including rhetoric and criticism.

Keywords: Rhetoric, criticism, speech, poetry, Argumentation.

***المؤلف المرسل**: عمّار منور ، **الإيميل**: ammarmenouer@hotmail.com

1. مقدمة:

تعدّ البلاغة من العلوم الرّفيعة الّتي يجب أن تُعَلَّم حتّى يكتسب الإنسان فصاحة وبلاغة تمكنه من إنشاء خطاب إقناعي من جهة وتخييلي من جهة أخرى، وهذا لا يتأتّى إلّا من خلال التّمكن من الآليات البلاغيّة والجماليّة، ومعلوم أنّ العرب قد عرفوا بالبلاغة والفصاحة منذّ العصر الجاهلي، فالشّاعر يفخر بنفسه وقبيلته مستعملاً خياله ومعجمه اللّغوي لنسج قصيدته لكن هذا

لم يمنع نوابغ الكلم من أمثال النّابغة الجعدي من نقد الشّعراء ونّصوصهم الشّعريّة نقدًا فطريًا ارتجاليًا، تتواشج فيه البلاغة بالنّقد، وهكذا نشأ النّقد والبلاغة متلازمان متكاملان، فكان لها دور في نقد النّصوص الشّعرية، ومن هنا نطرح التّساؤلات:

- **ما علاقة البلاغة بنقد الشّعر؟**
- **ما أثر البعد البلاغي في تحليل النّص الشّعري؟.**

ولتحديد حدود التّماس بين العلمين وجب الوقوف على الطرح البلاغي في الفعل النّقدي.

2. الطرح البلاغي في الفعل النّقدي:

يقول الجاحظ: "لا يكون الكلام يستحق البلاغة، حتى يسابق معناه لفظه، ولفظه معناه، فلا يكون لفظه إلى سمعك أسبق من معناه إلى قلبك"[1].

فالبلاغة إذن هي فن القول كمّا سمّاها بعض المعاصرين بهذا العنوان الصّريح، وحسن اختيار الألفاظ بما يناسب المعنى، وقد أشار الجاحظ إلى مسألة مناسبة اللّفظ للمعنى، وكان سباقًا لها، ومن خلال إيراده لمفهوم البلاغة يتجلّى أثر الذوق في البلاغة ويقربها أكثر من النقد، فحتّى المعاصرين من أمثال أحمد الشّايب وعند خوضهم في مسألة البلاغة يربطونها بالجانب النّقدي فيعرفها بقوله: "يعرف موضوع البلاغة بالرجوع إلى أهم خواصها، وهي مطابقة الكلام لمقتضى الحال، فأبحاث علم البلاغة تدور حول هذه المسألة وبيان ما يناسب وما لا يناسب، لأن ما يحسن في خطاب جماعة أو حال ما، قد لا يحسن مع جماعة أو في حال أخرى، وما قد يصلح لغرض من الأساليب لا يصلح لغرض أدبي، فالمسألة هي بيان الأنسب، لذلك يعترضنا دائماً هذان السؤالان: ماذا نقول؟ وكيف نقول؟"[2].

تدور أبحاث علم البلاغة حسب أحمد الشّايب حول بيان ما يناسب ولا يناسب، فالبلاغة فن أدبي ينضج الذّوق ويصقل العاطفة، فهي ذات طابع وجداني فنّي صلتها بالأدب وثيقة، فلا تكاد تنفك عنه ولا يكاد هو الآخر ينفك عنها، والواقع أنّ أحمد الشايب أثار مسألة مهمّة وهي: ماذا نقول؟ وكيف نقول؟، فالبلاغة حاضرة في هذا الأمر، فمنشئ الخطاب لا يتوانى عند بناء خطابه من مراعاة المقام والحال، فهذان الجانبان مهمان في صياغة القول، ولكن لا بدّ للعاطفة والوجدان والذوق من المشاركة في عملية بناء الخطاب، ويختلف بناء الخطاب من شخص لآخر حسب تكوينه الأدبي والسّياقات المتعددة الّتي تتداخل في إنتاج ذلك الخطاب وكذا العامل النّفسي، وهذه التّأثيرات المختلفة هي الّتي تجعل التّفاوت في المنزلة بين الخطب المختلفة شعريّة كانت أو نثريّة.

فالبلاغة هي الّتي تمكننا من اكتشاف جماليات النّص الشّعري، وقيّمه الفنيّة والإبداعيّة وتبرز المفاضلة بين تعبير وآخر، وبالتّالي المفاضلة بين شاعر وشاعر، فمعرفة علم البلاغة والتّمكن من آلياته يجعل البلاغي قادرًا على التّمييز والحكم بين نص شعري وآخر، وقد ارتبطت البلاغة بالنّقد منذ البذور الأولى لهما، فكان لصيقًا بها ومصاحبًا لها ومستفيدًا من آلياتها، وظهرت كلمة النّقد في الاستعمال الأدبي في القرن الثّالث الهجري، وهي تدلُ على تميّيز جيّد الشّعر من رديئه، كما ورد في قول بعضهم: "رآني البحتري ومعي دفتر شعر، فقال: ما هذا؟ فقلت: شعر الشّنفرى فقال: وإلى أين تمضي؟ فقلت: إلى أبي العباس أقرأه عليه، فقال: قد رأيت أبا عباسكم هذا منذ أيام عند ابن ثوابة، فما رأيته ناقدًا للشعر، ولا مميّزًا للألفاظ، ورأيته يستجيد شيئًا وينشده، وما هو بأفضل الشعر، فقلت له: أمّا نقده وتمييزه، فهذه صناعة أخرى."[3]

لا بدّ من الإشارة إلى أنّ علم البلاغة العربي نشأ في أحضان النّقد، ولكنّه سرعان ما استقلّ عنه، واستوت مباحثه على يد علمائنا الأجلاء ليستقر على التّقسيم الثّلاثي المقدس، ونقصد علم البيان، وعلم المعاني، وعلم البديع؛ فعلم المعاني هو: "تتبّع خواص تراكيب الكلام في الإفادة هو ما يتّصل بها من الاستحسان وغيره ليحترز بالوقوف عليها من الخطأ في تطبيق الكلام على ما يقتضي الحال ذكره"[4]، وعلم المعاني من المصطلحات الّتي أطلقها البلاغيّون على مباحث بلاغيّة تتّصل بالجملة وما يطرأ عليها من تقديم وتأخير، أو ذكر وحذف، وغيرها ممّا يحتويه هذا العلم من مباحث ترشدنا إلى اختيار التّركيب اللّغوي المناسب بما يطابق مقتضى الحال.

أما الباب الثّاني للبلاغة ونقصد علم البيان، فقد أفرد الجاحظ في كتابه "البيان والتّبيين" باباً خاصاً بالبيان، وقال في حدّه: "والبيان اسم جامع لكلّ شيءٍ كشف لك القناع وهتك الحجاب، دون **الضّمير** حتّى يفضي السّامع إلى حقيقته ...لأنّ مدار الأمر والغاية الّتي يجري إليهما القائل والسّامع إنّما هو الفهم والإفهام، فبأيّ شيء بلغت الإفهام وأوضحت عن المعنى، فذلك هو البيان في ذلك الموضع."[5].

يتبيّن لنا من خلال هذا التّعريف أنّ الجاحظ يركز على عملتي الفهم والإفهام، وجعلهما الغاية الّتي يفضي إليهما القائل والسّامع معاً لتحقيق التّواصل والإقناع بينهما، وبذلك أضحى البيان يمثّل القدرة على الكشف والإبانة، فالجاحظ يحاول أن يوضح أنّ علم البيان هو السّبيل للوصول إلى نفس المتلقي، وتحريك مشاعره، وتبليغ القصد إليه.

نصل إلى القسم الثّالث للبلاغة، ونقصد علم البديع، ويجب أن ننّوه بعمل ابن المعتز في هذا الباب إذ يقول أحمد مصطفى المراغي: "لكنّا نعلم أنّ أوّل من دوّن البديع الخليفة عبد الله بن المعتز بم المتوكل العبّاسي المتوفي سنة 296هـ فقد استقصى ما في الشّعر من المحسّنات، وألّف كتاباً سمّاه "البديع" ذكر فيه سبعة عشر نوعاً منها الاستعارة والكناية والتّورية والتّجنيس والسّجع، إلى غير ذلك ..."[6]، فهذا اعتراف واضح بفضل ابن المعتز في هذا الباب، فقد حظي بالسّبق ومهد الطريق لمن جاء بعده، فنال الاعتراف من قبل البلاغيين، وقد عرّف الخطيب القزويني البديع بقوله: " هو علم يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية تطبيقه على مقتضى الحال ووضوح الدلالة "[7]. ومعنى ذلك أن اللجوء إلى استعمال البديع مفاده تحسين الكلام وتنميقه دون المساس بدلالته، فهو تحسين الكلام مع المحافظة على القصد والغايّة، هكذا نشأ علم البلاغة في رحاب البيئة الدّينيّة، متشبثًا تارةً بالنّقد وأخرى بالنّحو، ليكتمل عوده وتستوي مباحثه متأصلة في التّقسيم الثّلاثي ونقصد علم البيان والمعاني والبديع.

مارس العرب القدامى النّقد وأصدروا أحكامًا على الأشعار، وإن كانت أحكاما فطريّة لا تخلو من الذّاتية إلّا أنّها دلت على قدرة التّذوق لديهم، فكانوا يفاضلون بين الشّعراء، وفي كتب النّقد العديد من الأمثلة الدّالة، ولكن كمصنفات أدبيّة يعتبر كتاب طبقات فحول الشّعراء **لـ"ابن سلام الجمحي"** (**232هـ**) أقدم وثيقة أدبيّة في هذا الباب، ولكن أول مصنّف يحمل هذه الكلمة (النّقد) عنوانا لهذه الممارسة العمليّة هو كتاب نقد الشّعر **لـ"قدامة بن جعفر"** (**ت 377هـ**)، فيقول في مقدمة كتابه "ولم أجد أحدًا وضع في نقد الشعر وتخليص جيده من رديئه كتابًا، وكان الكلام عندي في هذا القسم أولى بالشّعر من سائر الأقسام المعدودة"[8]، وهكذا أخذ العلماء من بعد قدامة يضعون النقد في عناوين مؤلفاتهم ككتاب العمدة في صناعة الشعر ونقده لـ"لقيرواني".

كما أنّ التّطبيق العملي للنّقد عند القدامى وجد أيضًا في كتابي "الموزانة بين الطائيين" للآمدي، و"الوساطة بين المتني وخصومه" للجرجاني، والمتتبّع للكتب الأخرى لا يرى إلاّ أحكام بالمدح والقدح للأعمال الشّعريّة والنّثرية، ومن خلال البحث في تراثنا الأدبي نجد الكثير من التوظيف البلاغي في نقد النّصوص الأدبيّة.

إنّ المتأمل لنشأة النّقد يرى أنّ الشّعر حظي بالاهتمام والدّراسة، وقد وجدت أحكام نقديّة منذّ العصر الجاهلي ولكن غلب عليها الطّابع الذّوقي الوجداني، ليستمرّ النّقد وتوضع حدوده في القرن الثّالث الهجري، ولكن لطالما ارتبط النقد بالبلاغة، فقد كان حاضنًا لها في البداية لتستقل عنه فيما بعد، وتترك آثارها ممثلة في ملامح وإشارات بلاغية نتلمسها من خلال تصفحنا للعديد من المصنفات النّقدية القديمة.

3.البعد البلاغي في نقد النّصوص الشّعرية:

إنّ الشّعر فنّ تندرج فيه أجناس شعريّة مثل المسرحية الشّعريّة والملحمة، وقد حظي باهتمام الدّارسين لعدة اعتبارات ونظرًا للقيمة الّتي تمتّع بها عند أهله، فظل محور حياتهم الثّقافيّة والعلميّة، وكان حقل النّاقد الّذي رأى ضرورة البحث فيه، وإصدار الأحكام في حقه، وحتى في العصر الأموي لم يسلم الشّعراء من التّصويب إذا وقعوا في الزّلل وهذا ما حدث لابن قيس الرّقيات" لمَّا أنشد لعبد الملك قصيدته البائية فيه ولما انتهى إلى قوله:

يَأْتَلِقُ التاَّجُ فَوقَ مِفْرَقِهِ   على جَبِينٍ كَأنَّهُ الذَّهَبُ

فغضب عبد المالك وقال: قد قلت في مصعب بن الزبير:

إنَّما مُصْعَبٌ شِهابٌ من الله   تَجَلَّتْ عن وَجْهِه الظَّلَماءُ

فأعطيته المدح بكشف الغمم وجلاء الظّلم، وأعطيتني من المدح ما لا فخر فيه"[9]، وهذه ملاحظة دقيقة فيجب أن يكون المدح بالفضائل النّفسية لا بأوصاف الجسم وما يتصل بها، وقد أحضر شاهدًا من شعر قيس في مدحه لمصعب بن الزّبير، وهذا يدلّ على سعة إطلاع عبد الملك، وتذوقه للشّعر، وهذه الملاحظة ذكرها قدامة في كتابه "نقد الشّعر"، فقد كانوا يهتمّون باللّفظ والمعنى، وهناك الكثير من الشّواهد الشّعريّة لهذا العصر، فقد كانت الملاحظات البيانيّة كثيرة، وقد عرفت البلاغة في هذا العصر تطورًا بفضل فن الخطابة والشّعر، فلا يمكن لأي خطيب أو شاعر أن يتخلّى عن البلاغة، فهي قوته وحجته، فهو يحارب بالكلمة ويكسب التّأييد بها، ويعبر بها عمّا يختلجه من مشاعر.

يزخر تراثنا الأدبي بالكثير من المصنّفات النّقدية الّتي استعانت بالمباحث البلاغيّة في نقد النّصوص الشّعريّة ، ويمكن أن نسرد بعض ما جاء فيها وفق تسلسل تاريخي :

نجد "**القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني**" (**ت366هـ**) في كتابه «الوساطة بين المتنبي وخصومه»، والملاحظ من خلال العنوان أنه أراد أن يتوسط بين المتنبي وخصومه، ويتحدّث في كتابه عن الاستعارة، ولاحظ أنّ بعض النّاس يخلطون بينها وبين التّشبيه البليغ، فيقول: "وربما جاء من هذا الباب ما يظنه الناس استعارة وهو تشبيه أو مثل، فقد رأيت بعض أهل الأدب ذكر أنواعا من الاستعارة عدَّ فيها قول أبي نواس:

والحبُّ ظَهْرٌ أَنت راكبُــــهُ   فإذا صرفـتَ عِنــانَــه انْصَــرَفَـــا

ولست أرى هذا وما أشبهه استعارة، وإنما معنى البيت أن الحب مثل زَهْر أو الحب كظهر تديره كيف شئت إذا ملكت عنانه، فهو إما ضربُ مثلٍ أو تشبيهُ شيء بشيء"[10]، فهو بذلك يحاول الفصل بين الاستعارة والتّشبيه، ثمّ ينتقل إلى التّجنيس فيقسمه أقساماً منه المطلق الّذي سُمي عند بعض البلاغيين باسم جناس الاشتقاق، ومنه المستوفى، وهو الجناس الكامل، كما أشار كذلك إلى المطابقة، والتّقسيم، والتّصحيف، وبذلك يكون قد عالج ألوان البديع، ثمّ يتحدث عن الشّعراء القدامى والمحدثين مركزًا على الشّاعرين أبي نواس وأبي تمام مبيّنا ما في شعرهما من جيّد ورديء، ثمّ يتوجّه للحديث عن المتنبي، كما أنه قد خصّص فصلا للحديث عن السّرقات الشّعريّة، وهكذا فقد أشار الجرجاني إلى بعض المباحث البلاغيّة، مستفيدًا منها في عمليته النّقدية، فقد استعان بعلم البلاغة لإصدار حكمه النّقدي فجعلها أداة للمفاضلة والفصل في بعض النّصوص الشّعريّة.

يعدّ "**أبو القاسم الحسن بن بشر بن يحي الآمدي**" (**ت370هـ**) من الّذين تأسست دراساتهم النّقدية في جوهرها على أسس بلاغيّة، ويظهر ذلك في كتابه «الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري»، ونجده أنّه قد استهلّ كتابه ببيان أنّ في الشّعر مذهبين، أمّا المذهب الأوّل فهو مذهب المطبوعين ويمثلهم البحتري، والمذهب الثّاني هو مذهب المتكلّفين ويمثلهم أبو تمام، ويعرض احتدام الجدل في المذهبين، فقد رأى أصحاب أبي تمام أنّه أتى بمذهب جديد في الشّعر، أمّا البحتري فقد كان مقلدا، ولكن أصحاب البحتري قد ردُوا عليهم بأن صاحبهم مقلد لمسلم بن الوليد، والآمدي بعد عرضه لجدال الفريقين يتطرق إلى بيان أنّ كلّ شاعر لم يَسلمْ من الطعن في شعره حتى شعراء الجاهليّة كامرئ القيس. يصدر الآمدي أحكاماً نقديّة في حق أبي تمام مستعينًا بالمباحث البلاغيّة، ومن شواهد ذلك قوله: "ومن خطأ أبي تمام في قوله:

بِيَومٍ كَطُولِ الدَّهْرِ في عَرْضِ مِثْلِهِ ... وَوَجْدِي مِنْ هَذَا وهذَاكَ أَطْوَلُ

فجعَلَ للدهر وهو الزمان– عَرَضاً، وذلك مَحْض المحال، وعلى أنه ما كانت [به] إليه حاجة؛ لأنه قد استوفى [المعنى بقوله «كطول الدهر » فأَتى على الغَرَض في المبالغة].

فإن قيل: فلم لا يكون سَعَةً ومجازاً [في الكلام]؟

قيل: هذه الألفاظ. صيغتها صيغة الحقائق، وهي بعيدة عن المجاز: لأن المجاز في هذا له صورة معروفة، وألفاظ مألوفة"[11].

إنّ الآمدي قوّي الحجّة، فقد بيّن وجه الخطأ في البيت مستخدمًا البلاغة في نقد هذا البيت، وأجاب عن التّساؤل الّذي قد يُطرح، فقد يستعين أنصار أبي تمام بقضيّة التّوسع والمجاز في الكلام، فأفحمهم برده ووضح أنّ للمجاز أضرب يَصلُح لها وألفاظه مألوفة. ويعرض الآمدي مجموعة من الاستعارات القبيحة التي جاءت في شعر أبي تمام، "كقوله:

يا دهرُ قوّمْ من أخْدَعيْك فقــد ... أضْجَجْتَ هذا الأَنامَ من خُرُقِك"[12]

الآمدي ينتقد أبا تمام انتقادا مرا على استخدامه مثل هذه الاستعارات الغريبة، ويراها "استعارات في غاية القباحة والهجانة والغثاثة والبعد عن الصيانة"[13].

أبدى الآمدي اهتماما كبيرا بالاستعارة، فهي لا تستعمل إلّا فيما يليق بالمعاني فاللّفظ لا يستعار لما ليس له إلّا إذا كان يقاربه أو يناسبه أو يشبهه في بعض أحواله ثمّ ينتقل إلى البحتري فيذكر له بعض السّرقات، ثم أشار إلى اضطراب أوزانه، ولكن بقدر قليل مقارنة مع أبي تمام، كما تحدث عن الجناس الرديء والجيد، والطباق مما يدخل في باب البديع، فنلاحظ أنّ الآمدي استعان بألوان البديع في نقد النّص الشّعري، وكتابه زاخر بالشواهد الشّعرية الّتي تدخل ضمن هذا الباب.

" **أبو علي حسن بن رشيق**" (**ت456هـ**) صاحب كتاب «العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده»، والكتاب في جزأين استهل الحديث عن فضل الشّعر، ويفرد باباً للبلاغة يذكر فيها بعض تعريفاتها المبثوتة في كتاب البيان والتّبيين، ويفتح للإيجاز باب ويتلوه بباب للبيان وآخر للنّظم، وجعل الاختراع للمعنى والإبداع للفظ، ويأخذ في الحديث عن البديع وفنونه منوها بصاحبه ابن المعتز، ثمّ باب في المجاز وإنما أراد به طرق القول التي تحتاج شيئا من التّأويل، ويؤكد ما قاله ابن قتيبة " لو كان الكلام كذبًا لكان أكثر كلامنا باطلاً"[14]، ويرى أنّ المجاز أبلغ من الحقيقة، ويعقد فصلا عن الاستعارة متحدثا فيها بإسهاب عن فنونه، ناقلا عن علي بن عبد العزيز الجرجاني والرماني وابن وكيع المصري، ويفرد فصلا للتّمثيل، ثم يتحدّث عن التّشبيه مستفيدا من سابقيه، ومستنيرا ببحوثهم السّابقة، ويذهب إلى التّجنيس ذاكرا أنواعه الكثيرة كالمحقق، المضارعة، النّاقص، المشاكلة، المنفصل، التّرديد، التّصدير، المطابقة، المقابلة، التّقسيم الّذي أشار فيه إلى اختلاف وجهات النّظر، والتّسهيم متابعا في ذلك ابن هارون المنجم بينما قدامة وأبو هلال أطلقا عليه مصطلح «التّوشيح»، وسمّاه ابن الوكيع «المطمع»، التّفسير، الاستطراد، التّفريع الّذي أدرجه وأتبعه للاستطراد، التّتميم، المبالغة، الإيغال، الغلو ويشار له أيضًا بالإغراق والإفراط، أمّا «الإغراق» ورد عند القاضي الجرجاني في كتابه الوساطة وغيرها من الأبواب الّتي ذكرها في التّخصيص للبلاغة من مديح، وافتخار ورثاء وهيجاء، ولا بد من الإشارة إلى دقة صاحب العمدة في جمعه للآراء المتقابلة في الفنون المختلفة، كما يُلاحظ أنّه كان حسن التّدقيق وحسن الاختيار، فجمع فن الرّواية إلى علم الدّراية، ففرق بين ألوان لطالما اختلطت حدودها فكان له يد في البلاغة العربيّة لا تقلّ في صنيعها عن صنيع غيره من كبار البلاغيين، وهذا ما جعله يحظى بإشادة الدّارسين ولعل في هذا نورد قول عبد الرءوف مخلوف: "تدور مباحث كتاب العمدة حول النقد والبلاغة، وله ذلك الباع الذي لا يطاول"[15]، وهذا دليل على نبوغ ابن رشيق القيراوني فهو قدم مباحث في النّقد والبلاغة، مما خدم البلاغة وسار بها نحو الازدهار.

لا يمكن تجاوز شيخ البلاغيين ونقصد "**عبد القاهر الجرجاني**" (**ت471هـ**) الّذي يعدُّه البعض مؤسس علم البلاغة وواضع قواعدها، ففي عهده استوت البلاغة على سوقها تُعجب الزراع، ففي كتابه دلائل الإعجاز وظف ظواهر بلاغيّة في نقد النّصوص الشّعريّة، ففي حديثه عن قضيّة الفصل والوصل مثلاً استحسن هذا القول الشّعري:

"قَالَ لي: كيف أنت؟ قلت: عليلُ، سَهَرٌ دائِمٌ وَحُزْنٌ طَوِيلُ

لما كان في العادة إذا قيل للرجل: ((كيف أنت؟)) فقال: ((عليل))، أن يُسأل فيقال: ((ما بِك؟ وما علتك؟))، قدَّر كأنه قد قِيل له ذلك، فأتى بقوله: ((سهر دائمٌ)) جواباً عن هذا السؤال المفهوم من فَحْوَى الحال، فاعرفه:"[16].

علّق الجرجاني على هذا الشّاهد وبيّن وجه الحسن فيه، وهو تقدير المجيب وجوابه بعد إمعان سؤال السائل، فقد كان بالإمكان أن يتوقف عند الجواب الأوّل، ولكنّه قدَّر فأجاب قبل أن يُسأل عن سبب علته، ونرى أنّ الجرجاني استفاد من قضيّة الفصل والوصل في تفضيل هذا البيت، ولطالما ارتبطت المباحث البلاغيّة بالنّقد المعياري للنّصوص الشّعريّة، وكتاب الجرجاني زاخر بمثل هذه الشّواهد.

4. علاقة البلاغة بالنّقد:

إنّ الأصل بين العلوم التّكامل والتّعاون، والتّأثر والتّأثير وهذا يشكل علاقة معينة ذات أبعاد محدّدة، والواقع أنّ البلاغة والنّقد علمين متكاملين متحدين في بعض الأحيان، والعلاقة الرّابطة بينهما تكمن في الطاقة الجمالية الّتي تفرزها البلاغة العربيّة، والنّقد

هو المخول للحكم على هذه الطاقة الجماليّة، وتوجيه أحكام تستند في الغالب على تلك الطاقة الجماليّة؛ إذن فعلاقتهما علاقة الروح بالجسد.

إنّ الإبداع الفني يقتضي مُثلاً جمالية، يسهر المبدع على سبكها حتى يصل إلى أبلغ وأجود الكلام، وهذا لا يتأتى إلا بتمام آلة البلاغة والدّربة والممارسة، فالنّاقد لا يمكن أن ينتقد نصًا شعريًا مثلاً إلا إذا كان هو نفسه شاعراً، يعرف آليات الشّعر وقوانينه، وهاجس الشّاعر هو إيصال مشاعره إلى غيره بأحسن تعبير وأجمل بيان، وأدق عبارة وأبلغ معنى، والنّاقد يجب أن يكون شاعرًا حتى يتمكن من نقد نص شعري آخر، وفي هذا الشّأن يمكن أن نذكر النّابغة الذّبياني تضرب له قبة حمراء ويحتكم إليه الشّعراء، فيذكر ما أنشّده حسان بن ثابت الأنصاري قائلا:

" لنا الجفناتُ الغُرُّ يلمعن بالضُّحى — وأَسْيَافُنَا يقْطُرْنَ من نَجْدَةٍ دَمَـا
ولَدْنا بني العنقاء وابْنَيْ مُـــحرّقٍ — فأكرِم بنا خالاً وأكرِمْ بنا ابْنَما

فقال له النابغة «أنت شاعر» ولكنك أقللت جفانك، وفخرت بمن ولدت ولم تفخر بمن ولدك، وإنما قال " أقللت جفانك وأسيافك " لأن " الجفنات" لأدنى العدد والكثير " جفان" وكذلك "أسياف" لأدنى العدد والكثير " سيوف" "[17].

هذه هي البذور الأولى للبلاغة ابتداء من العصر الجاهلي، الّتي كانت مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بالنّقد، كما ننوه بالمعلقات والقصائد الجاهليّة الّتي كانت زاخرة بالتشبيه والاستعارة وغيرها من الألوان البلاغيّة، فقد اهتموا كثيرا بفنون الكلام وهذا ما يعد دليلا قطعيا على أنّ البلاغة والنّقد شغلا حيزا زمنيا بداياته من العصر الجاهلي، والحديث على المعلقات يطول ولكن لا بدّ أن نشير إلى أن بعض شعراء المعلقات كانوا ينقحون قصائدهم حولًا كاملًا حتى يطرحوها في أبهى حلّة وبأرقى أسلوب، حتى تحتلّ المكانة الّتي تستحق، ولا تتعرض لنقد الشّعراء ، والجاحظ يؤكد هذه الحقيقة بقوله: "ومن شعراء العرب كان يدع القصيدة تمكث عنده حولاً كْرِيتاً وزمناً طويلاً يردّدُ فيها نظره، ويجيل فيها عقله ويُقلب فيها رأيه اتهاماً لعقله، وتتبُعاً على نفسه، فيجعل عقله زمامًا على رأيه ورأيه عيارًا على شعره إشفاقًا على أدبه، وإحرازًا لما خوّله الله تعالى من نعمه"[18]، وقد تحدّث صاحب كتاب العمدة كذلك عن هذا الأمر فقال: "ويقال:إن أبا نواس كان يفعل هذا الفعل، فينفى الدنئ، ويُبقي الجيد، وليلتمس له من الكلام ما سَهُل، ومن القصد ما عدل، ومن المعنى ما كان واضحا جليًّا، يُعرف بديًا، فقد قال بعض المتقدمين: شرُّ الشعر ما سئل/ عن معناه. وكان الحطيئة يقول: خير الشعر الحَوليُّ المحكّك، أخذ في ذلك بمذهب زهير، وأوس، وطفيل."[19]

نرى أنّ النّقاد لم يعارضوا هذا الأمر بل استحسنوه، فلا عيب أن نستعين بالبلاغة في تجويد العمل الأدبي بعد إنشائه، فهذا يزيد من قوّة بيانه وتأثيره على المتلقي، فالنّقد لا يمكن بأيّ حال من الأحوال أن يبتعد عن حقل البلاغة الّتي تبقى بحقّ العلم الكلي الحاضن للعلوم الأخرى الّتي لا تنفك عنه، فيصيب منها مواقع الماء من ذي الغُلّة الصّادي.

فالصّلة وثيقة وتمتد جذورها منذّ النّشأة، ورغم انفصال العلمين –البلاغة والنّقد– عن بعضهما إلّا أنهما يستعينان بمباحث بعضهما لإرساء بعض القواعد والأحكام، وقد تفطن لهذا الأمر علماء اللّغة القدامى، وهذا ما تجلّى في تراثهم الأدبي الزّاخر الّذي لازال قيد الدّراسة والتّحقيق من قبل المعاصرين، وهذا ما يُشجع الباحثين المعاصرين على إتباع نهج القدامى في نقد النّصوص الشّعرية مع الاستعانة بالنّظريات المعاصرة.

5. خــاتمــة:

وأخيرًا نخلص من دراستنا هذه إلى نقاط مهمّة نذكر منها:

- إنّ الشّاعر أو الأديب ينتج خطابا شعريا وفق رؤية جماليّة تعبيرية، ثم يأتي النّاقد ليحكم على هذا العمل بالإيجاب أو السّلب، ومنها تظهر العلاقة بين البلاغة والنقد، البلاغة شغلت حيزًّا كبيرًا في مساحة النّقد العربي القديم.
- حظي النّص الشّعري باهتمام النقاد القدامى، ومن خلال أبحاثهم في نقد الشّعر قدموا خدمات جليلة لعلم البلاغة، وبينوا مباحث هذا العلم الجليل.
- إنّ البلاغة تهدف إلى إقناع المتلقي وجعله يذعن بما يطرح عليه من أفكار، وهذا ما جعل أساطين البلاغة يهتمون بالأبعاد الحجاجيّة في بناء أي نص أدبي، وحتى يكتمل هذا البناء وجب الاهتمام بالنّقد، فيكون صاحب النّص الشّعري أول ناقد لهذا النّص.
- استعان أصحاب النّقد بالكثير من المباحث البلاغيّة في نقد النّصوص الشّعرية، وهذا ما تجلى في الكثير من مصنفاتهم النّقديّة الّتي لا تكاد تخلو من هذه المباحث.
- إنّ النّاقد الحاذق يكون متمكنا من آلة البلاغة قادرا على إنتاج النّصوص، حتى يتمكن من نقدها، وقد لاحظنا أنّ من كان ينتقد النّصوص الشّعرية إما أن يكون شاعرا أو أديبا متمرسا.
- إنّ التّكامل والتّعاون بين العلوم أمر لا مفر منه، والبلاغة والنّقد وغيرها من العلوم تتكامل فيما بينها لإنتاج نصوص تحقق التّقدير والإعجاب من جهة الإقناع والتّأثير من جهة أخرى.

6. مراجع البحث:

1. ابن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، حققه وفصله وعلق حواشيه، محمد محي الدين عبد المجيد، دار الجيل، سوريا، ج1، ط5، 1401هـ، 1981م.
2. أبو القاسم الحسن بن بشر الآمدي، الموازنة بين البحتري وأبي تمام، تحقيق أحمد صقر، دار المعارف، مصر، ط4، 1992، ص196..
3. أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، البيان والتّبيين، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة ط7، 1998م، ج1.
4. أحمد الشّايب، الأسلوب، مكتبة النّهضة المصريّة، مصر، ط2، 1991م.
5. أحمد مصطفى المراغي، أحمد مصطفى المراغي، علوم البلاغة البيان والمعاني والبديع،دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، ط3، 1993م.
6. خبر النابغة وحسان في جمهرة أمثال العرب في الجاهلية والإسلام، لأبي زيد محمد بن أبي خطاب القريشي تحقيق علي محمد البجاوي، دار النّهضة، مصر، 1981م.
7. السّكاكي، مفتاح العلوم، السكاكي، مفتاح العلوم، ضبطه وكتب هوامشه وعلق عليه زُرْزور، دار إحياء الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط2، 1987م.
8. شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، دار المعارف، مصر، ط9.
9. عبد الرّءوف مخلوف، نوابغ الفكر العربي ابن رشيق القيرواني، دار المعارف، مصر،، (د،ط)، 1946..
10. عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تحقيق محمد رضوان الدّاية، فايز الدّاية، دار الفكر الإسلامي، دمشق، ط1، 1428هـ، 2007م.
11. عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تحقيق محمد رضوان الدّاية، فايز الدّاية، دار الفكر الإسلامي، دمشق، ط1، 1428هـ، 2007م.
12. علي بن عبد العزيز الجرجاني، الوساطة بين المتنبي وخصومه، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم – علي محمد البجاوي، المكتبة العصريّة، بيروت، ط1، 2006م.

13. عيد المتعال الصّعيدي، البلاغة العاليّة –علم المعاني – مكتبة الآداب للنّشر والتّوزيع، القاهرة، ط2، 1991م.
14. قدامة بن جعفر، نقد الشّعر، تحقيق محمد عبد المنعم خفّاجي، دار الكتب العلميّة، لبنان، (د ط)، (د ت)،.
15. محمد أحمد قاسم، محي الدين ذيب، علوم البلاغة (البديع و البيان و المعاني)، المؤسسة الحديثة للكتاب طرابلس، لبنان، ط1، 2003م.

الهوامـش:

1- أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، البيان والتّبيين، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة ط7، 1998م، ج1، ص115.
2 – أحمد الشّايب، الأسلوب، مكتبة النّهضة المصريّة، مصر، ط2، 1991م، ص36.
3- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تحقيق محمد رضوان الدّاية، فايز الدّاية، دار الفكر الإسلامي، دمشق، ط1، 1428هـ، 2007م، ص259، ص260.
4 – السّكاكي، مفتاح العلوم، السكاكي، مفتاح العلوم، ضبطه وكتب هوامشه وعلق عليه زُرْزور، دار إحياء الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط2، 1987م، ص161.
5 – الجاحظ، البيان والتّبيين، مصدر سابق، ج1، ص76.
6 – أحمد مصطفى المراغي، أحمد مصطفى المراغي، علوم البلاغة البيان والمعاني والبديع،دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، ط3، 1993م، ص7.
7- محمد أحمد قاسم، محي الدين ذيب، علوم البلاغة (البديع و البيان و المعاني)، المؤسسة الحديثة للكتاب طرابلس، لبنان، ط1، 2003م، ص 53
8 – قدامة بن جعفر، نقد الشّعر، تحقيق محمد عبد المنعم خفّاجي، دار الكتب العلميّة، لبنان، (د ط)، (د ت)، ص61.
9 – شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، دار المعارف، مصر، ط9، (د ت)، ص18.
10 – علي بن عبد العزيز الجرجاني، الوساطة بين المتنبي وخصومه، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم – علي محمد البجاوي، المكتبة العصريّة، بيروت، ط1، 2006م، ص54.
11 – أبو القاسم الحسن بن بشر الآمدي، الموازنة بين البحتري وأبي تمام، تحقيق أحمد صقر، دار المعارف، مصر، ط4، 1992، ص196 ص197.
12- أ المصدر نفسه، ص261.
13- المصدر نفسه، ص265.
14 – ابن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، حققه وفصله وعلق حواشيه، محمد محي الدين عبد المجيد، دار الجيل، سوريا، ج1، ط5، 1401هـ، 1981م، ص266.
15 – عبد الرّءوف مخلوف، نوابغ الفكر العربي ابن رشيق القيرواني، دار المعارف، مصر،، (د،ط)، 1946، ص73.
16 - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تحقيق محمد رضوان الدّاية، فايز الدّاية، دار الفكر الإسلامي، دمشق، ط1، 1428هـ، 2007م، ص244.
17 – عيد المتعال الصّعيدي، البلاغة العاليّة –علم المعاني – مكتبة الآداب للنّشر والتّوزيع، القاهرة، ط2، 1991م، ص34.
– راجع خبر النابغة وحسان في جمهرة أمثال العرب في الجاهلية والإسلام، لأبي زيد محمد بن أبي خطاب القريشي تحقيق علي محمد البجاوي، دار النّهضة، مصر، 1981م، ص79.
18 – أبو عثمان عمرو بن الجاحظ، البيان والتبيين، مصدر سابق،ج2، ص9.
19 – ابن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشّعر وآدابه ونقده، مصدر سابق، ص322.